

كتب بالعربية

طلائع النهضة في فلسطين (خريجو المدارس الروسية)

١٨٦٢ - ١٩١٤

حنا أبو حنا

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥.
١٩٣ صفحة. ٨ دولارات.

طلائع رواد النهضة

في فلسطين في سطور

يقدم الكتاب سيرة ذاتية موجزة لأهم رواد النهضة وآثارهم الفكرية، المؤلفة والمترجمة، من خريجي السمنار، الفلسطينيين واللبنانيين. نذكر منهم: إسكندر الخوري البيتجالي (علم في دار المعلمات في بيت جالا، ومن آثاره ١٣ عنواناً)؛ خليل بيدس (تخرج مع الفوج الأول سنة ١٨٩٢، ومن آثاره ٣٠ عنواناً)؛ شبلي ناصر رزق (كان من المتفوقين وهاجر إلى الأرجنتين حيث أصدر صحيفة "كوردوبا")؛ نعمة الصباغ (عمل في عدد من المدارس والمعاهد في فلسطين ولبنان. نظم الشعر ونشره في "كوردوبا"، ومجلة "الفنون" في نيويورك، ومجلة "النفاثات العصرية" في فلسطين، ومجلة "الإخاء" في القاهرة)؛ كلثوم عودة (تخرجت بتفوق من دار المعلمات في بيت جالا، ونشرت مقالات في "النفاثات العصرية"، وفي مجلة

مدرساً في مدرسة البنين الروسية في مدينة أميون (الكورة)، مسقط رأسي. وتزوج الصباغ فتاة أميونية من آل العازار. ويقول مؤلف الكتاب، حنا أبو حنا، أنه درس على نعمة الصباغ في فلسطين. والكتاب يضم صورة لمدرسة البنين الروسية في أميون، التي أسست في سنة ١٨٩٥. ولا يزال المبنى قائماً حتى الآن، إذ تشغله مدرسة حكومية للبنات. وفوق كل ذلك، كانت والدتي الراحلة تقول لي أنها تعلمت في مدرسة البنات الروسية في مدينة الميناء بالقرب من مدينة طرابلس. أما الكتاب فيعالج، بوجه رئيسي، رواد طلائع النهضة في فلسطين من خريجي المدارس الروسية خلال السنوات ١٨٦٢ - ١٩١٤ بتركيز على خريجي السمنار في الناصرة. وكانت بلاد

تعود رغبة كاتب هذه السطور في إجراء قراءة لهذا الكتاب الفريد في نوعه إلى عدة عوامل، أبرزها أنني كنت بدأت إعداد دراسة عن المدارس الروسية في لبنان منذ أعوام، ثم توقفت حتى إشعار آخر. إلا إن هذا الكتاب جدد عزمي على استئناف نشاطي البحثي؛ فلقد وفر لي فعلاً كثيراً من المصادر الأولية في اللغتين العربية والإنكليزية. كما كنت تلقيت دروسي في اللغة العربية في المرحلة الثانوية، على أحد كبار خريجي دار المعلمين، "السمنار" الروسي، في الناصرة بفلسطين، وهو الأستاذ والأديب والشاعر نعمة سليم الصباغ. وكان ذلك في مدرسة بشمزين العالية في الكورة، شمال لبنان، في أواسط القرن العشرين المنصرم. ويذكر أن الصباغ كان

بجهود ذاتية. أمّا عامة الناس فقد سادت بينهم أُمّية محزنة" (ص ١٢). ويضيف: "لم تكن الحال في تركيا ذاتها أحسن من الولايات [العثمانية]. فلم يبدأ اهتمام الدولة العثمانية رسمياً بالتعليم إلا في أواسط القرن التاسع عشر. ففي سنة ١٨٤٧ عُنِيت أول لجنة للمعارف لمراقبة المدارس في الولايات العثمانية، ولم تنشأ وزارة للمعارف [التربية والتعليم] إلا سنة ١٨٥٧" (ص ١٢). وفي القدس أنشئت أول مدرسة رشيدية في فلسطين في سنة ١٨٦٨. وحتى سنة ١٩١٤ بلغ عدد المدارس الرسمية في فلسطين ٩٥ مدرسة. وكانت لغة التعليم فيها التركية. وحيال ذلك، بدأت جمعية المقاصد الخيرية في فلسطين بإنشاء مدارس خاصة، في سنة ١٨٧٠، كردة فعل على المدارس التركية والمسيحية. فوصل عدد مدارس المقاصد في سنة ١٩١٤ إلى ٣٧٩ مدرسة، بلغ عدد طلابها ٨٧٧١ طالباً وطالبة (ص ١٣ - ١٤).

وعلى الصعيد المسيحي، شرعت الكنيسة الكاثوليكية في إنشاء أولى مدارسها التي أنشأها الآباء الفرنسيون في بلدة بيت لحم في القرن السادس عشر. وكان الهدف تعليم المسيحيين أن يتقنوا لغة أجنبية للعمل في الأديار ولخدمة الحاجاج الأجانب كترجمين. وفي القرن السابع عشر كان نصيب فلسطين من المدارس الكاثوليكية

الخطة أن تتحول دار المعلمين في الناصرة إلى جامعة، لكن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف ذلك (ص ١). وتقصى المؤلف أثر خريجي السمنار من الفلسطينيين بصورة رئيسية في أربعة ميادين هي: التربية والتعليم، والصحافة الأدبية، وترجمة الأدب الروسي إلى العربية، والإنتاج الأدبي الأصيل (في القصة والرواية). ومما يجدر ذكره أن مؤلف الكتاب، المولود في قضاء الناصرة سنة ١٩٢٨، كان تلقى علومه في الناصرة على ثلاثة خريجين من السمنار هم: خليل سليمان ونصر رمضان ونعمة الصباغ (ص ٥٧). وهو باحث ومرب، عمل مديراً للكلية الأورثوذكسية العربية في حيفا، ومحاضراً في جامعة حيفا. ويرى المؤلف أن "من أهم عوامل النهضة الأدبية والثقافية في الشرق العربي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين [كان] إقامة المدارس والمعاهد التربوية، وما أعقب ذلك من اتساع رقعة التعليم ودخول الطباعة وظهور الصحافة واتساع ميادين الثقافة" (ص ١١).

التعليم في العهد العثماني

تطرق المؤلف إلى أوضاع التعليم في العهد العثماني، بالقول: "أهمل التعليم في ظل الحكم العثماني الطويل على الشرق العربي، ولم يتح إلا لنخبة أن تتعلم

"الحسنة" في بيروت في سنة ١٩٠٤ وتزوجت طبيباً روسياً سافرت معه إلى روسيا حيث درست اللغة العربية في مدينة سان بطرسبورغ. ألّفت وترجمت عدداً من الكتب من العربية إلى الروسية وبالعكس. تتلمذ على يدها كثير من المستشرقين الروس. من آثارها خمسة عناوين: ناصر عيسى (عين مديراً للمدرسة الروسية في بلدة بينو في عكار، شمال لبنان. من آثاره ثلاثة عناوين: سليم قيعين (اضطر إلى الهجرة إلى مصر لمواقفه من السلطة العثمانية. أصدر عدداً من الصحف. ومن آثاره ١١ عنواناً): إبراهيم الياس ورور (اختير لمتابعة دراسته في جامعة موسكو حيث تزوج هناك. من آثاره كتابان): جاد ورور (سافر إلى الأرجنتين سنة ١٩٢٢ حيث أصدر مجلة "الجامعة"، وترأس تحرير صحيفة "كوردوبا". من آثاره عنوانان مترجمان عن الإنكليزية والإسبانية): وسواهم من الخريجين (ص ١٣٩ - ١٥٠). يقول المؤلف بالنص: امتاز الجهد الروسي في هذا المضمار بإنشاء شبكة من المدارس في فلسطين - الجليل وبيت جالا - وفي كثير من المواقع في لبنان وسورية، بلغت ١١٤ مدرسة سنة ١٩١٤، تضم ١٥,٠٠٠ طالب وطالبة، وتبرز بينها دار للمعلمين في الناصرة (السمنار)، ودار للمعلمات في بيت جالا. وكانت

(٤) توفير التوجيه التربوي لأهميته الثقافية والاجتماعية.
(٥) التوعية القومية (العربية) للطلاب في السمنار بالناصرية.
(٦) تنظير التربية والتعليم بما ألفه بعض الخريجين من كتب أو نشره في الصحف والمجلات عن التربية والتعليم.
(٧) إعداد الكتب المدرسية. فقد ساهم كثيرون من الخريجين في تأليفها في مرحلة كان الكتاب نادراً، وخصوصاً الكتاب المدرسي (ص ١٢٦).

دور نهضوي

خريجي السمنار

في التربية والتعليم

أدى خريجو السمنار دوراً طليعياً في مسيرة الحركة التربوية والتعليمية في فلسطين وسواها. وكانت هذه المسيرة هي الأساس للمسيرتين الثقافية والأدبية معاً. وتوزع هذا الأثر على ميادين التعليم المباشر، وتنظير التربية، وإعداد الكتب المدرسية (ص ٦٠). وقد رصد المؤلف أثر خريجي السمنار في التربية والتعليم كأحد العوامل المهمة في النهضة الثقافية والأدبية العربية في فلسطين والمشرق العربي والمهجر الأميركي. وعن دور السمنار، يقول المؤلف بالحرف: "لا شك في أن إنشاء دار المعلمين [السمنار].... بهذا المستوى، كان أمراً فريداً في نوعه

"الرسالة الروحية في أورشليم"، تأسست في سنة ١٨٥٤، و"الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية الفلسطينية الروسية"، في سنة ١٨٨٢، "لحفظ الأورثوذكسية في البلاد المقدسة ورتق ما فتقه من ثوبها القشيب أولئك الجمعيات المتقدم ذكرها" (ص ٢١). والجمعية الإمبراطورية هي التي أنشأت شبكة من المدارس في فلسطين ولبنان وسورية.

أبرز سمات

المدارس الروسية

إن أبرز سمات المدارس الروسية كانت التالية:
(١) إتاحة نور العلم لأبناء وبنات القرى البعيدة عن مراكز المدن. ولما كان التعليم مجانياً بالكامل، فقد أتيح لأبناء الفلاحين الفقراء أن يتعلموا، وأن يُفسح المجال أمام المتفوقين منهم لمتابعة دراستهم في السمنار، في الناصرة (ص ١٢٦)، أو في روسيا ذاتها، مثل ميخائيل نعيمة وسواه. غير أن أغلبية مدارس الإرساليات الأجنبية كانت متركزة في القدس، حيث لم يكن يستطيع الوصول إليها إلا أبناء العائلات التي تتمكن من دفع النفقات (ص ٤٧).
(٢) الاهتمام بتعليم اللغة العربية بشيء من التوسع.
(٣) الاهتمام بتعليم البنات، إذ أنشئت مدارس خاصة بالفتيات، ودار للمعلمات في بيت جالا.

ست مدارس. ثم أخذ نشاط الكنيسة ذاتها يتسع في القرون التالية حتى بلغ أوجه في أواسط القرن التاسع عشر (ص ١٥).
أما النشاط البروتستانتي (الإنجيلي) فضم الإرساليات الإنكليزية والبروسية (الألمانية) والأميركية. وكانت أول مدرسة أنشأتها الإرساليات مدرسة صهيون في سنة ١٨٥٣، ثم أعقبها مدارس ومعاهد أخرى (ص ١٦ - ١٨).

المدارس الروسية

تدخل على الخط

لماذا دخلت روسيا على الخط في إنشاء مدارس في فلسطين ولبنان وسورية؟ يعود ذلك إلى مواجهة النشطين الكاثوليك والبروتستانت في التربية والتعليم، بالإضافة إلى نشاطات أخرى علاجية وخيرية. وكان من جراء ذلك أن تحول كثيرون من أبناء الطائفة الأورثوذكسية إلى هاتين الطائفتين الجديدتين. فتحرك النشيطون الروس لإقامة شبكة موسعة من المدارس "لحفظ الأورثوذكسية في البلاد المقدسة"، على حد تعبيرهم (ص ١٨).
وفي أواخر القرن التاسع عشر بلغت الجمعيات الإرسالية العاملة في فلسطين ١٧ جمعية، منها: ست ألمانية، وخمس فرنسية، وأربع إنكليزية، واثنان روسيتان. أما الجمعيتان الروسييتان فهما:

في هذا البلد [فلسطين]. وهو أول معهد من نوعه في المجتمع العربي الفلسطيني" (ص ٥٥).

انتشر خريجو السمنار في مختلف مدارس الجمعية الإمبراطورية، التي ظل عددها في ازدياد. ومضى أبناء الجليل، الفلسطيني، يعملون في فلسطين ولبنان وسورية. ولقد نشط الخريجون العاملون في التربية والتعليم، ولا سيما عندما كانت الضرورة ملحة لذلك، وكانت شبكة المدارس في مراحل نموها الأولى. كما كان معلمو السمنار القدوة الأولى في ذلك أيضاً (ص ٥٥). أما خريجات دار المعلمات، في بيت جالا، فلقد انتدبن للتعليم في مدارس روسية في لبنان، منها مدرسة ضهور الشوير ومدرسة بتغرين (ص ٥٦).

وبالإضافة إلى التعليم، اهتم خريجو السمنار بنشر الوعي التربوي ومناقشة قضايا التربية والتعليم، كما نشط العاملون في التربية والتعليم في تأليف الكتب المدرسية، وكذلك ترجموا كتباً مدرسية عن الروسية (ص ٥٩).

نشاط صحافي

من فلسطين إلى أميركا

رصد المؤلف نشاط خريجي السمنار في الصحافة بوجه عام، وفي الصحافة الأدبية بوجه خاص، والذي امتد من فلسطين إلى المهاجر في القارة الأميركية.

وقال: "يُدْهَش مَنْ يتعقب النشاط الصحافي الذي قام به خريجو السمنار الروسي في الناصرة، والذي امتد من فلسطين إلى مصر وإلى أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية" (ص ٦١).

وضرب عدة أمثلة لتلك النشاطات في كل بلد. وقال: ففي حيفا، مثلاً، أصدر خليل بيدس مجلة "النفاثس العصرية" في سنة ١٩٠٨، ثم انتقل معها إلى القدس في سنة ١٩١١، وكانت أهم مجلة ثقافية أدبية في ذلك الحين. وفي القاهرة، مصر، أصدر سليم قبعين كثيراً من الصحف، إلا أن مجلة "الإخاء" في سنة ١٩٢٤ احتلت مقاماً مهماً، وأدت دوراً خاصاً في مسيرة الحركة الثقافية. كما أصدر جريدة "الأسبوع" في سنة ١٩٠٠، ومجلة "فردوس النيل" في سنة ١٩٠٣، وجريدة "النيل" في سنة ١٩٠٣ أيضاً (ص ٦١ - ٦٩).

وفي نيويورك، أنشأ عبد المسيح حداد صحيفة "السائح" في سنة ١٩١٢، وأنشأ الشاعر نسيب عريضة مجلة "الفنون" في سنة ١٩١٦ (ص ٦٩). ولفت المؤلف النظر إلى أن نصف أعضاء الرابطة القلمية في نيويورك (العشرة) كانوا من خريجي السمنار وهم: ميخائيل نعيمة ورشيد أيوب (من بسكنتا، لبنان) ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد وندرة حداد (من حمص، سورية)، (ص ٧٠). وفي الأرجنتين، أصدر شبلي رزق، ابن الناصرة، صحيفة

"كوردوبا"، وساهم في الكتابة فيها نعمة الصباغ (سنة ١٩٠٢)، وغيره من خريجي السمنار. وفي ساو باولو أصدر سعيد أبو جمرة صحيفة "الأفكار" في سنة ١٩٠٣. وأصدر سمعان حاماتي مجلة "النسر" في توكومان (ص ٧١). ومما يجدر ذكره أن الصحف والمجلات المذكورة أدت دوراً طليعياً وبارزاً في النهضة الأدبية العربية الحديثة.

الترجمة الأدبية

عن الروسية

كما في سائر المجالات الآتية الذكر، كذلك في الترجمة، أدى خريجو السمنار دوراً طليعياً، وبوجه خاص من اللغة الروسية. وكان للترجمة دور مهم في النهضة الحديثة. فهي التي فتحت النوافذ على الآفاق العلمية والحضارية والثقافية في المجتمعات المتطورة في الغرب. وكان لخريجي السمنار الفضل الأول في تعريف الأدباء والقراء العرب بالأدب الروسي الروائي. ونشر هؤلاء الخريجون في الصحف والمجلات ترجمات لروايات طويلة ولقصص قصيرة. وقد عرض المؤلف هذه الآثار وأشار إلى ميزات في هذا الكتاب (ص ١٢٧ - ١٢٨). واهتم كثيرون من خريجي السمنار بنقل الآثار الأدبية عن اللغة الروسية إلى العربية بسبب

الحديثة، تتمثل في ظهور المدارس والمعاهد الروسية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكان أبرزها دار المعلمين الروسية (السمنار) في الناصرة (١٨٨٦ - ١٩١٤). لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى أوقف جميع المعاهد والمدارس الروسية في فلسطين ولبنان وسورية عن متابعة نشاطاتها بسبب دخول روسيا الحرب.

الياس خليل زين
أستاذ جامعي وباحث

“النفاثس العصرية”، أو على صفحات مجلة “الإخاء” في مصر في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين المنصرم (ص ١٢٩).

ثلاثة ملاحق مهمة

في الكتاب ثلاثة ملاحق مهمة للغاية حيث بذل المؤلف جهداً جباراً في جمعها من مختلف المصادر القديمة. ولعل أبرز ما تظم: قائمة بأهم معلمي وخريجي السمنار في الناصرة، مع سيرة ذاتية شبه موجزة عن كل منهم؛ صور لمباني المدارس والطلاب والطالبات في مدارسهم، ومنها مدرسة أميون التي كانت تظم ٢١٩ صبياً. وهناك جدول بأسماء ١٠٢ مدرسة روسية كانت منتشرة في ربوع فلسطين ولبنان وسورية سنة ١٩٠٧. هذا بالإضافة إلى وثائق أخرى مهمة.

لا بد من التنويه بهذا الكتاب القيم، الذي أرخ ووثق بالوقائع والحقائق والأرقام ظاهرة تربوية وثقافية بارزة في حياة فلسطين

إعجابهم بهذا الأدب الرفيع. وقد حظي اللون الروائي بحصة الأسد من هذه الترجمات. وأدرك هؤلاء المترجمون الثغرة الحضارية في تلك المرحلة، فعرفوا كيف يتصرفون على صعيد المضمون، ثم على صعيد الأسلوب (ص ٧٥، ١٢٧). هذا وقد أورد المؤلف الكثير من العناوين التي ترجمت عن الروسية (ص ٨٠ - ٨٧).

الإنتاج الأصيل:

القصة القصيرة والرواية

تطرق الباحث إلى تحليل الإنتاج الأصيل في مجال القصة القصيرة والرواية بالقول: “علاوة على ذلك كله، فلقد كان خريجوا هذا السمنار طلائع في الإنتاج القصصي، بما في ذلك القصة القصيرة والرواية الطويلة. وقد رأينا آثار الإنتاج القصصي الفلسطيني في مجلة “النفاثس العصرية” منذ مطلع العقد الثاني للقرن العشرين، وفي كتابات خليل بيدس وإسكندر الخوري البيتجالي، ثم في كتابة الرواية الطويلة الأصيلة” (ص ١٢٨).

وتحدث الكتاب عن دور الخريجين الفلسطينيين الذين قدموا لحركة النهضة الأدبية مساهمة مهمة في ميدان الترجمة الأدبية، وفي الصحافة الأدبية. كما كانوا قوة مهمة ساندت الإبداع والتجديد في مسيرة النهضة عامة، سواء على صفحات